﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إصـــلاحُ حـالِ الأنبياء الدّعاةِ وجعلُهم هُداةً وعابدينَ تُقاةً

لـمّا ذَكَرَ اللّه سبحانه أنّه وهبَ لإبراهيم إسحاقَ ويعقوبَ ﷺ، وأعطاهُم رُتبةَ الصّلاحِ في أنفسِهم، ذَكَرَ هنا أنّه أعطاهُم رُتبةَ الإصلاحِ لغيرهم[1]، بجعْلِهم أئمّةً هُداةً، ورُسلًا دعاةً، علمًا بأنّ الإمامةَ المنوطةَ بهم، ليست إمامةً زمنيّةً ماديّةً، ولكنّها إمامةُ قدوةٍ روحيّة، التزموا بها وجوبًا، بأمرِ اللّه العليِّ الحكيمِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَئِمَّةً﴾: (أمّ) أصلٌ واحدٌ، وله فروعٌ كثيرةٌ، فالإمام: كُلُّ مَنِ اقتُدي به وقُدِّمَ في الأمورِ، والنّبيّ ﷺ إمامُ الأئمّة، والخليفةُ إمامُ الرّعيّة، والقرآنُ إمامُ المسلمين[2].

فكلُّ من يؤتمُّ به سواءً أكان إنسانًا فيُقتدَى بقوله أوْ فعلِه، أم كتابًا، أم غيرَ ذلك مُحِقًّا كان أم مُبطِلًا، سُمّي إمامًا، وجمْعُه: أئمَّةٌ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71] أي: بالّذي يَقتدونَ به[3]، فيكون معنى ﴿أَئِمَّةً﴾ في الآية: جعلْناهم رؤساءَ يُقتَدَى بهم في الخيرِ[4].

2) ﴿يَهْدُونَ﴾: (هدي) أصل، والهُدى: نقيضُ الضّلالة، والهدى زوالُ الحيرة، وهو ضدُّ العَمَه الّذي هو الحَيْرةُ، ومنه قولُ الشّاعر:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 449.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(3) الراغب، المفردات: (أمم).
(4) الواحديّ، البسيط: 15/ 128.

واسألْ ولا تنسَ إنْ كنتَ امرءًا عَمِهًا *** إنّ السُّؤالَ هُدًى إنْ كنتَ حيرانا[1]

ومنه قولُهم: هديتُهُ الطّريق هدايةً، أي تقدّمتُهُ لأُرشدهُ، وكُلُّ مُتقدّم لذلك هاد، ويُقال: أقبلت هوادي الخيل، أي: أعناقُها؛ لأنّهُ المتقدّمُ، والهاديةُ: العصا، لأنّها تتقدّمُ مُمسكها كأنّها تُرشدُهُ[2]، والهُدى هو الرَّشادُ والدَّلالَةُ[3]، وهو كذلِكَ البَيانُ، والهدى إخْراجُ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، والهُدى الهادي في قوله جَلَّ وعَزَّ: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه: 10]، أيْ: هاديا؛ وهو منَ التّعبيرِ بالمصدرِ عنِ اسم الفاعل، والطَّريقُ يُسَمّى هُدًى[4]، مبالغةً في المدحِ لهُ، فَيَكونُ معنى ﴿يَهۡدُونَ﴾ في هَذِهِ الآيَة: يُرشِدونَ العِبادَ، ويُنقذونَهم مِنَ الضّلالِ.

3) ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاء علْمٍ في إخفاءٍ أوْ غيرِه إلى غيرك، فالوَحْيُ: الإشارةُ، والوَحْيُ: الكتابُ والرِّسالةُ، وكُلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتّى عَلِمَه فهو وحيٌ كيفَ كان[5]، ويقال للكلمةِ الإلهيّة الّتي تُلقَى إلى أنبيائِه وأوليائِه: وحيٌ، وذلك أضرُبٌ: إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ، تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامُه، وإمّا بسماع كلامٍ من غير معاينةٍ كسماع موسى عليه السلام كلامَ اللّه، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهام؛ نحو: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ نحوَ قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68]، أوْ بمنام، أو بغير ذلك[6]، والوحي في الآية، هو تبليغُ اللّه عزّ وجلّ أوامرَه ونواهيَه، إلى رُسلِه بواسطة جبريلَ عليه السلام.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه سُبحانه أنّه جعلَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام، قُدوةً للنّاس يدعونَهم إلى عبادة اللّه وطاعتِه ويَهدونَهم بإذنِه تعالى، وأوحَى إليهم فِعْلَ الخيرات وإقامةَ شرائعِ الدّينِ بين النّاسِ منَ العباداتِ والمعامَلات، وإقامَ الصّلاة على وجهها، وإيتاءَ الزّكاة،

(1) البيت لأُمَيّة، كما قال أبو على الفارسي، الحجّة للقراء السبعة: 2/ 215، ينظر في معنى العمه: أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 32، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 56، وكذلك: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 37.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هدي).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدي).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

(6) الراغب، المفردات: (وحيَ).

فامتثلوا لذلك، وكانوا مُنقادينَ مُطيعين للّه وحده دون أحدٍ سواه[1]، فاستحقّوا أن يَخصّهم اللّه بشرف البلاغِ، وعُلوِّ المقام في العبوديّة، بفعْلِ أشرف العبادات، كالصّلاة والزّكاة، امتثالًا لأمرِ اللّه تعالى، وتعظيمًا لشرعِه وهُداه.

اصطفاءُ اللّه سبحانه آلَ إبراهيم قُدوةً للنّاس في الهدايةِ والعبادةِ والصّلاحِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾:

بيانُ تشريفِ إبراهيمَ وذرّيّتِه بهدايتِه للعبادة وتزكيتِه

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾، على ما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، بمعنى أنّ اللّه سبحانه قد جمعَ لإبراهيمَ عليه السلام منَ التّكريم، بأن وهبَه إسحاقَ، ثمّ زاده بأن وهبَه يعقوبَ بنَ إسحاقَ في حياته ورؤيتِه إيّاه كهلًا صالحًا، وعَطفَ على ذلك صلاحَهم ثمَّ عطفَ عليه جعْلَهم أئمّةً للنّاس رُؤساءَ، يُؤتَمُّ بهم في الخير، في طاعة اللّه تعالى، وفي اتّباع أمرِه ونهْيِه، ويُقتدَى بهم في ذلك، وهنالك تقارنٌ في الخيال بين صورة الصّلاحِ النّفسيِّ وصورة الإصلاحِ الغيريِّ؛ إذِ الخيالُ يربطُ بين صورتَي الصّلاح والإصلاحِ لِما بينَهما منَ التّلازمِ والاقتضاءِ، وتوالي العطْفِ يفيدُ الامتنانَ وتلاحُقَ النِّعَمِ وتكاثرَها وتواليَها[2].

سرُّ التّعبير بالفعل (جَعَلَ) في الآية:

تصييرُ إبراهيمَ عليه السلام وذريّتِه أئمّةً في الدّين

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ التّعبيرَ بالفعلِ (جعل)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فعلَ وصنعَ)، وسائرِ أخواتِها، ويتصرّفُ على خمسةِ أوجهٍ حسبَ السّياق الّذي يردُ فيه[3]، وهوفي هذه الآية بمعنى التّصْيير، فقد صيّرَ اللّه الكريم بمنِّه إبراهيمَ وذرّيّتَه عليهم السلام رؤساءَ يُقتدَى بهم في الخير، وفيه إلماحةٌ إلى أنَّ هنالك

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 472.
(3) الرّاغب، المفردات: (جعل).

تغييرًا اختصَّه اللّه تعالى بهم، ولم يصدرْ عنهم مَلَكةً واقتضاءً ذاتيًّا لولا فضلُ اللّه عليهم وإرادتُه التّكوينيّةُ بتمْييزِهم واختيارِهم.

نُكتةُ إسنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العظمةِ (نا):

عظمةُ الواهبِ سبحانه في اصطفاء ذرّيّةِ إبراهيمَ عليه السلام دون العالمين

أُسنِدَ الجعلُ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالةِ على عظمةِ الواهب ﷻ، وعظيم فضْلِه على أنبيائِه، ولاسيما إبراهيمَ عليه السلام، فقد نجّاه بقُدرتِه العظيمةِ منّ النّار، ووهبَه الذُّرّيّةَ على الكِبَر، وصيّر ذرّيّتَه أنبياءَ يُقتدَى بهم في الدّين والصّلاح، لينوّهَ بهم في القرآن الكريم، باعتبارِهم النّموذجَ الأمثلَ للبشريّة، في جعْلِهم قُدوةً للنّاس على مدَى الزّمان الّذي عاشوا فيه، من حيث إنّ إرسالَ الرُّسل من ذريّةِ إبراهيمَ، إشارةٌ إلى جلالة الاصطفاءِ، وكرمِ المَحتِد، المُتوارَثِ كابرًا عن كابر، وفي ذلك الإسناد إبرازٌ للفاعل الحقيقيِّ بصورة العظمةِ والإجلالِ، الّذي تُسندُ إليه الأفعالُ كلُّها حتى لا يغيبَ عن بال المادحينَ للأنبياء صورةُ الفاعلِ الحقيقيِّ الّذي اصْطفاهم وجعَلَهم صالحين وأئمّةً هادينَ إلى الصِّراط المستقيم.

أثرُ تَكرارِ الفعل (جَعَلْنا) في النّظم:

تأكيدُ اصطفاءِ إبراهيمَ وذرّيّتِه منَ الأنبياء عليهم السلام

يدلُّ تَكرارُ الفعلِ (جعل) في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾، بعد أن قال قبله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 72]، على التّأكيدِ المُظهرِ للاهتمام بهذا الجعْلِ الشّريفِ، وهو جعْلُهم هادين للنّاس، بعد أن جعَلَهم صالحين في أنفسِهم، فأعيدَ الفعلُ ليكونَ له مزيدُ استقرارٍ في نفسِ المُتلقّي فيسألَ اللّه تعالى الجعْلَ على مِنوالهم والاهتداءَ بأنوارِهم، ولأنّ في إعادة الفعل، إعادةَ ذكْرِ المفعول الأوّل، وهو إبراهيمُ وذرّيّتُه عليهم السلام، فكانت إعادتُه وسيلةً إلى إعادة ذكْرِ المفعولِ الأوّلِ[1]، وهو بذلك يُعطي فسحةً لتكييفِ الجملةِ، واستيعابِ المعنَى، وفقًا لِما يتماشى مع غرضِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 109.

السّياقِ، وفي توظيفِ (التّكرار الفعليّ) ما يدلُّ على توالي النِّعمِ وتلاحُقِ الكمالاتِ المتعلّقةِ بالنّفسِ والغيْرِ؛ إظهارًا لقَدرِهم الشّريفِ، وإبرازًا لمكانتِهم العظيمةِ الَّتي صيّرَهمُ اللّه تعالى إليها، وقد تعلَّقَ الجعلُ الأولُ بكلِّ واحدٍ منهم؛ لأنَّ صلاحَهم الذّاتيَّ متعلِّقٌ بكلِّ واحدٍ منهم، وأمّا الجعلُ الثاني فقد تعلَّقَ بمجموعِهم، وذلك التّغايرُ يدلُّ على أنَّ الإصلاحَ المتعدّي للغير قد وقعَ في مجموعِهم دون كلِّ واحدٍ منهم كما هو الواقعُ في الإمامةِ لهم والهدايةِ بالأمر الإلهيِّ.

بَلاغةُ فنّ الاستعارةِ في السّياقِ المُبين:

استُعير الفعلُ ﴿يَهْدُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، لمعنى الفعل (يَدْعونَ)، بجامعِ أنَّ الدّعوةَ للخير دلالةٌ وهدايةٌ إليه، والمعنَى: أنّهم يَدعون النّاس إلى دين اللّه تعالى[1]، وإن لم يَقبَلوه[2]، والحاملُ على القول بالاستعارة هنا أنّ الهدايةَ بيد اللّه وحدَه، وإنّما الأنبياءُ يَدعونَ النّاسَ ويُرشِدونَهم إلى طريق الحقّ، كما يدلُّ مجيءُ الفعل ﴿يَهْدُونَ﴾ بصيغة المضارع على لزومهم الاستقامةَ ودوامِ دعوتِهم، إلى طريق اللّه ﷻ، ولمّا كانت الدّعوةُ إلى اللّه تعالى منهم دائمةً مُستمرةً متواليةً ترتَّب عليها الهدايةُ والإيصالُ إلى الطريق المستقيم؛ فأوثرَ التّعبيرُ بـ(الهداية) على التّعبير بمجرّد (الدعوة) والإرشاد؛ إعلاءً لقدْرِهم ورفعًا لمكانةِ دعوتِهم على سائرِ الدّعوات، وبذلك يتناسبُ اختيارُ (الهداية) مع (الإمامة)؛ لأنّ من شأن الإمامِ المتقدّمِ على جماعتِه أنْ يَهديَهم ويدلَّهم على الطريقِ والعاقبةِ الحسنةِ، بخلاف مجرّدِ (الدعوة).

هدايةُ الإرشادِ خاصّةٌ بالرُّسل وهدايةُ التّوفيق والإيصال لله الأجلّ

دلالةُ التّقييد بالجملةِ الفعليّةِ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾:

وردتِ الجملةُ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 554.

تقييدُ الهدايةِ باتّباعِ أوامرِ الله ونـواهـيـه من أسـبـابِ الـرِّضا والقَبولِ

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ في موضع الحالِ منَ المفعولِ الأوّلِ مُقيِّدةً لمعنى الإمامةِ، أي: إنّهم أئمّةُ هُدًى وإرشادٍ[1]، كما يُستفادُ من هذا التّقييدِ أنّ الدّعوةَ إلى الحقِّ، والمنْعِ عنِ الباطل، لا يجوزُ إلّا بأمرِ اللّه تعالى؛ لأنّ الأمرَ لو لم يكن معتبَرًا، لَما كان في قوله ﴿بِأَمْرِنَا﴾ فائدةٌ[2]، والهدايةُ بأمرِ اللّه تعالى، توفيقٌ عليٌّ، وتسديدٌ جليٌّ، تنقشعُ به سُحُبُ الضّلالةِ، وتتوارَى به ملامحُ الجهالةِ، وتتبدّى بها معالمُ اليقين، وخصائصُ الحقّ المُستبين، ويكونُ توفيقُ اللّه للهُداة والدّعاةِ سبيلًا لإبراز حقيقةِ الإمامةِ المُبلِّغة عنِ اللّه، بما قيّدَتْه الآيةُ الآنفةُ، ونلمحُ في اختيار (الحال) جملةً فعليّةً بصيغةِ المضارعِ دلالةً على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لحدَثِ الهدايةِ، وكأنّ الهدايةَ تصدرُ منهم في جميعِ أحوالِهم وأقوالِهم وهيئاتِهم.

دلالةُ لفظِ ﴿يَهْدُونَ﴾ على الصّلاحِ والبلاغِ:

صـلاحُ الـنّـفسِ شرطٌ في إصلاحِ الآخـريـن حـالـةَ الهدايةِ بأمرِ الله تعالى

يُستفادُ من لفظ ﴿يَهْدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أنّ الأنبياءَ كاملون في أنفسِهم مهتدونَ؛ لأنّ من صلُحَ ليكونَ قُدوةً في دين اللّه، فالهدايةُ محتومةٌ عليه مأمورٌ هو بها، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقلَ عنها، وأوّلُ ذلك أن يهتديَ بنفسه؛ لأنّ الانتفاعَ بهُداه أعمُّ والنّفوسَ إلى الاهتداءِ بالمهدي أميَلُ[3]، كما يُستفادُ من اللّفظ أيضًا تحديدُ الوظيفةِ الأصليَّةِ للأنبياءِ والدّعاة والمرشدينَ إلى الحقِّ تعالى؛ فهم يقدِّمون الهدايةَ والدّلالةَ الموصلةَ للمطلوب والحقِّ.

دلالةُ عدمِ ذكرِ المفعولِ به للفعل ﴿يَهْدُونَ﴾:

حُذفَ معمولا الفعل ﴿يَهْدُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 110.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 127.

أهمّيةُ الدّعوةِ إلى صراطِ الله في الدّلالةِ على هدايةِ الله

يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، والتّقديرُ: (يَهدونَ النّاسَ طريقَ الحق)، والنّكتةُ في حذفِهما التّركيزُ على فعل الهدايةِ، لأهمّيّتِه في ذاته، والاقتصارِ على إثبات معنى الفعلِ، لإفادة الوجودِ المجرّدِ في الشّيء دونَ التّعرّضِ للمعمول[1]، فيُجعلُ المتعدّي كغيرِ المتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا، لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلامُ مُنصبًّا إلى غرضٍ منَ الأغراض، جُعل سياقُه له وتوجّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2]، كما يُستفادُ من تنزيل المُتعدّي منزلةَ اللّازم أنَّ صفةَ الهداية قد لابستْ هؤلاءِ الأنبياءَ ولازمَتْهم في جميع شؤونِ حياتِهم، فهم لا يتجرّدون عنها في أقوالِهم وأفعالِهم، وفي ذلك التّنزيلِ أيضًا توجيهٌ ربانيٌّ للدّعاةِ والمُرشدين أن يَقصدوا من فعلِهم الدّعوةَ ذاتَها والإرشادَ نفسَه دونَ الاكتراث بنتائج الدّعوةِ وثمراتِ الإرشاد الّتي تتحقّقُ بكثرةِ الأتباعِ وتكاثُرِ المُهتدين، كما أفاد تحويلُ المُتعدّي إلى لازمٍ أنَّ اتّصافَ المُرشدين بالهداية كافٍ في نشر أثَرِها في الأتباع، وانتشارِ نورِها عند الآخرين.

دلالةُ ضميرِ الجمْعِ في ﴿يَهۡدُونَ﴾:

بيانُ أنَّ مُهمّةَ الأنبياءِ عليهم السلام جميعًا هي التّوحيدُ

يدلُّ ضميرُ الجمعِ في ﴿يَهۡدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ على أنّ دعوةَ جميعِ الأنبياءِ واحدةٌ، وهي الدّعوةُ إلى توحيدِ اللّه، وإخلاصِ العبادةِ له سبحانه وتعالى، وتركِ عبادةِ ما سواه، مِصداقًا لكثيرٍ منَ الآيات منها: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: 5]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]، وقولِه أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36] فتشابهت مُهمّةُ الأنبياءِ عليهم السلام، في الوسيلةِ والغايةِ،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

كما أفادَ الضّميرُ الرّبطَ بين جعْلِهم أئمّةً والهدايةِ الّتي لا تنفكُّ عنهم، إذِ الضّميرُ يربطُ بين الحالِ وصاحبِه ممّا يولّدُ تماسكًا في النّصّ وارتباطًا بين مكوّناته.

دلالةُ الباءِ على الملابسةِ في قوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾:

بيانُ أنّ إرشادَ الأنبياءِ ﷺ النّاسَ هو الوحْيُ في الأساسِ

تعدّى الفعلُ ﴿يَهْدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ بحرف الجرّ (الباء)، ومعناه هنا (الملابسةُ)، أي: إنّ الأنبياءَ يُرشدون النّاسَ مُتلبّسين بما أنزل الله عليهم، منَ الوحْيِ والأمرِ والنّهي، فكأنّه قال: (يهدون بكتابنا) لا يَخرجون عمّا أمرناهم فيه من أوامرَ، وإنّما عبّرَ عنِ الكتاب بالأمرِ مجازًا لعلاقةِ الحالّيةِ، فسُمّي الكتابُ الّذي يَعملونَ به ويأتمِرون بأوامرِه بالأمرِ؛ لأنّها حالةٌ فيه، وفي ذلك تشخيصٌ دقيقٌ لمناطِ العملِ بالكتابِ، وهو الالتزامُ بالأوامرِ الواقعةِ فيه، وقيل: المعنى: (يَهدون النّاسَ إلى ديننا بأمرنا إيّاهم بإرشادِ الخلقِ، ودعائِهم إلى التّوحيد)[1]، وهدايةُ النّاسِ الملابسةُ لأمر الله، تكون دعوةً للحقِّ وإلى صراطٍ مستقيم، وما كان متلبّسًا ومختلطًا ومتداخلًا بأمرِ الله فهو المناطُ باليقينِ، والمُرتبطُ بالنّهج الواضحِ المُستبين.

دلالةُ الارتباطِ بين (الهداية) و(أمر الله):

اتّباعُ مَن يَهدي بأمر الله سبيلُ الأنبياءِ المُكلّفين منَ الله

ارتبطتِ الهدايةُ والإرشادُ بأمرِ الله، في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، للإشارةِ إلى طاعةِ الأنبياءِ ﷺ، لربِّهم أوّلًا، ولبيانِ صوابِ ما يدعون إليه، وأنّه الحقُّ لا ريبَ فيه[2]، وأنّ الدّعوةَ إلى الحقِّ والمنعِ عنِ الباطل، لا يجوزُ إلّا بأمرِ الله تعالى، وجعْلُهم يَهدون بأمرِ الله، أي: يُهتدَى بهم في أمرِ الله، أو يُؤتمُّ بهم في الخير، أو يَهدون النّاسَ بأمرِ الله إياهم بذلك، ويدعونَهم ببصيرةٍ إلى كنفِ الهدايةِ، ومَسلك العنايةِ، وعبادةِ الله تعالى، تحقيقًا لشرفِ تلك الغايةِ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 305.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4895.

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾:

أُضيفَ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ إلى ضمير (نا) الّتي تدلُّ على تعظيم الآمرِ سُبحانه، وعلياء قدْرِه، ممّا يترتّبُ على ذلك عِظَمُ الأمرِ في نفسه؛ لأنّ المضافَ يكتسبُ تشريفَه وعظمَتَه منَ المضاف إليه، لتعدّدِ صفاتِه الحميدةِ، ومواهبِه الجزيلةِ، فإنّ مثلَ هذا التّعبيرِ يُعبّرُ به الملوكُ والعظماءُ النّافذُ أمرُهم ونهْيُهم، ويَستلزمُ هذا التّنويهَ بشأنِ وحْيِ اللّه وتفخيمَ قدْرِه، وإدخالَ المهابةِ في قلوب العبادِ، فهو أمرٌ من عند العظيمِ سبحانه[1].

تـوقيرُ أمـرِ الله العظيمِ يعكسُ الامتثالَ لوحْيِه الكريمِ

دلالةُ واوِ العطفِ في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾، على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾، بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقتران؛ إذ يتقارنُ في الخيال جعلُهم أئمّةً مُرشدين والإيحاءُ إليهم بفعلِ الصّالحات، فجمع اللّه لذرّيةِ إبراهيم عليه السلام بين الإمامةِ والهدايةِ والإرشادِ، وبين الاختصاصِ بالوحْيِ والنّبوّةِ والرِّسالةِ، وذلك من أعظمِ النِّعَم عليهم في أنفسِهم، وعلى أبيهم إبراهيمَ عليه السلام[2]، وهي عطايا متلاحقةٌ منَ اللّه تتوالى على هؤلاء البَررةِ، ممّن حملَ مشعلَ الهدايةِ، وانقطع للدّعوةِ والعبادةِ، والقربِ منَ اللّه تعالى، وكان الوحْيُ إليهم بالشّريعةِ المنزّلةِ عليهم، لتحقيقِ مرادِ اللّه كما أوحَى به عليهم، وفي ذلك محضُ تقديرِهم، ومناطُ سعادتِهم، في العاجلةِ والآجلةِ.

بيـانُ مـا جمعَ لـذرّيـة إبراهيمَ عليه السلام بين النّبوّةِ والـشّـرفِ والإرشادِ

سرُّ إسنادِ الفعل ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ إلى ضميرِ العظمةِ:

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ إلى ضميرِ (نا)، للدلّالةِ على عظمةِ الموحي سبحانَه، فهو مصدرُ الوحيِ الأوحدُ، وفيه أيضًا الدّلالةُ على عظمةِ اللّه ﷻ وعلياء قدرِه، مع إدخال المهابةِ في قلوب العباد، لتفخيم

تـفـخـيـمُ شـأنِ الـوحـي بـالأمـرِ المـرادِ في قـلـوبِ العبادِ

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.

وحْيِ العظيمِ سبحانه، وامتثالِ أوامره ونواهيه، ونلمحُ أيضًا عظمة الوحْيِ نفسِه وفخامةِ شأنه وجلالةِ قدْرِه من عظمَةِ الموحي وهيبَتِه، وفي ذلك إرشادٌ للموحَى إليهم أن يُعظِّموا وحْيَ اللّه ويُفخِّموا أمرَه بالعملِ والالتزامِ بشرعِه.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ في الآية:

ملمحُ بلوغِ الوحيِ وانتهائِه إلى الأنبياءِ عليهم السلام

عُدّيَ الفعلُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾ بحرف الجرّ (إلى) الدّالِّ على الوصول والانتهاءِ، للتّعبيرِ عن بلوغِ الوحْيِ للأنبياء عليهم السلام، وانتهائِه إليهم انتهاءَ تمكُّنٍ واستقرارٍ بواسطة رسولِ اللّه منَ الملائكة، وهو جبريلُ عليه السلام، وفي تشخيص الموحَى إليهم دون غيرِهم إجلالٌ لهم وبيانٌ لامتيازِهم عن غيرهم، وأفاد ضميرُ الجمعِ الرّبطَ بين الجُملتَين المتعاطفتَين لتبدوا كأنّهما لُحمةٌ واحدةٌ في سياقٍ نَصّي متماسكٍ، والضّميرُ العائدُ إلى الأئمّةِ الهُداةِ يُعطي التّعليلَ الواضحَ لسرّ الاجتباءِ والإيحاءِ إليهم دون من سِواهم منَ النّاسِ.

نُكتةُ تقدّمِ شبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على معمول الفعلِ:

اختصاصُ الواهبِ سبحانَه إبراهيمَ عليه السلام وذرّيّتَه بالنّبوّةِ

تقدّمَ شبْهُ الجملةِ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، لنُكتةٍ بلاغيّةٍ، وهي الاختصاصُ بشرفِ النّبوّةِ، لأنّ الإيحاءَ هو التّنبئةُ، بمعنى اختصاصِ إبراهيمَ عليه السلام وذرّيّته، بالوحي دون غيرِهم، وفي ذلك تكريمٌ وتشريفٌ للأب وذرّيّته[1]، كما أفاد تقديمُ شبْهِ الجملةِ على معمول الفعْلِ اختصاصَهم بإيحاءِ فعْلِ الخيرِ إليهم دون مَن سواهم، وفي ذلك كمالُ المدحِ لهم، فكلُّ ما يصدرُ عن هذه الذّرّيةِ الطيّبةِ من إرشادٍ وسلوكٍ وصفاتٍ فهي من ثمراتِ تخصيصِ الوحْيِ إليهم دون غيرِهم بفعلِ الخيراتِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.

دلالةُ الجمْعِ بين (الوحي) و(فعلِ الخيرات):

بـلـوغُ الـكـمـالِ بـالـجـمْـعِ بين العلمِ والعملِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، الجمعَ بين العلمِ المتمثّلِ في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾؛ لأنّ الوحْيَ والإلهامَ نقلُ معلوماتٍ ممّا يستلزمُ اكتسابَ علمٍ وفهمٍ، والعملِ المُتمثّلِ في قوله: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ إذ تعلّقَ الإيحاءُ بمطلوبٍ عمليٍّ يستلزمُ الامتثالَ والقيامَ بالفعل للخير، وذلك للدّلالةِ على كمال الأنبياءِ عليهم السلام، بانضمامِ العملِ إلى العلم[1]، فقد ألهمَ اللّه ﷻ نفوسَهم العلمَ والشّرائعَ وكلّفَ جوارحَهم فعْلَ الخيراتِ والانهماكَ بها.

دلالةُ عبارةِ ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ في الآية:

الأمـرُ للأنبياء عليهم السلام أمـرٌ لأتْـبـاعِـهـم بـمـضـمـونِ الأحكامِ

اختلفَ المُفسّرون رحمهمُ اللّه في دلالة قولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فاستشكلَ بعضُهم كونَ فعْلِ الخيرات، وإقامِ الصّلاة وإيتاءِ الزّكاة، ليس من الأحكامِ المختصّةِ بالموحَى إليهم، بل هم وغيرُهم في ذلك مشتركون فيه، فقال إنّ قوله: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أصلُه: (أنْ تُفْعَلَ الخيراتُ، ثمّ فِعْلًا للخيراتِ، ثمّ فِعْلَ الخيراتِ)[2]، فبنَى الفعلَ للمفعول حتّى لا يكونَ المصدرُ مضافًا، من حيث المعنَى إلى ضميرِ الموحَى إليهم، فلا يكونُ التّقديرُ: (فعْلُهم الخيراتِ)، بمعنى أنّه ليس مختصًّا بالمخاطَبين منَ الموحَى إليهم وحدَهم، بل هي لهم ولغيرهم[3]، وعلى هذا التّخريجِ تكونُ الخيراتُ مفعولةً للنّاس كلِّهم، فحُذفَ الفاعلُ للتّعميم مع الاختصارِ لاقتضاء المفعولِ إيّاه، ويجوزُ أن يكونَ فعلُ الخيرات، هو الموحَى به، أي وأوحَيْنا إليهم هذا الكلامَ واللّفظَ المخصوصَ وهو ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فيكونُ لفظُ فعلِ الخيرات هو الموحَى به إليهم ليبلِّغوه للنّاس أجمعين، وحينئذٍ يكونُ المصدرُ قائمًا مقامَ الفعل مُرادًا به الطّلبُ، والتّقديرُ: (افعلوا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 56.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.

الخيراتِ)، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: 4][1]، على أنّه يمكنُ دفعُ الاستشكالِ بأنَّ الإيحاءَ إلى الأنبياء عليهم السلام بأن يفعلوا الخيراتِ ويُقيموا الصّلاةَ ويُؤتوا الزكاة أمرٌ للأتباع أيضًا؛ لأنَّ من شأنِ الأئمّةِ الهُداة أن تكونَ أفعالُهم وأقوالُهم محلَّ الاقتداءِ والامتثالِ، وفي ذلك التَّعبير تطْمينٌ لقلوب الأتباع بأنّهم لا يكلَّفون إلّا بما يُكلَّفُ به الأنبياءُ والدّعاةُ والمرشدون أنفسُهم، فتخضعُ نفوسُهم لأوامرِهم وتمتثلُ جوارحُهم لآدابِهم.

بَلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ في الآية:

عُطِف في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ خاصٌّ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾، على عامٍّ، وهو قولُه تعالى: ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وبلاغتُه التّنبيهُ على مزيَّةٍ وفضْلٍ في الخاصِّ، حتّى كأنّه لفضْلِه ورِفعته، جزءٌ آخرُ مُغايرٌ لما قبلَه، فتخصيصُ إقام الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاة بالذّكرِ بعد شمولِ الخيراتِ إيّاهما، تنويهٌ بشأنِهما؛ لأنّ بالصّلاة صلاحَ النّفس، إذِ الصّلاةُ تنهى عنِ الفحشاء والمُنكرِ، وبالزّكاة صلاحُ المجتمع، لكفايةِ عَوَزِ المُعوَزين[2].

أفضلُ العباداتِ البدنيّةِ الصّلاةُ وأفضلُ العباداتِ الماليّةِ الزّكاةُ

كما أنَّ مجيء كلمة ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهو جمعٌ معرّفٌ بـ(أل) يفيدُ الاستغراقَ والشّمولَ لكل أفرادِ الخيرِ وصوره المُتنوّعةِ، وتخصيصُ الصّلاةِ والزّكاة بالذّكرِ من بين صور الخيراتِ تنويهٌ بشأنِهما وخيريّتِهما، وأنّهما من أعلى صور الخيراتِ وأكملِ نماذجِه؛ لأنّهما أساسا العباداتِ البدنيّةِ والماليّةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في السّياقِ:

اقترانُ لفظِ الصّلاة بإقامتِها تنويهٌ بجوهرِ الصّلاةِ وغرَضِها

وأوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لفظُ ﴿وَإِقَامَ﴾ على (إقامة)، وقد نصّ سيبَوَيه في باب (ما لحقتْه هاءُ التّأنيثِ عوضًا لِما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 111.

ذَهب) على أنّه مصدرٌ بمعنى الإقامة[1]، وإن كان الأكثرُ (الإقامةَ) بالتّاء، وهو المَقيسُ في مصدرِ (أفعلَ) إذا اعتلّت عينُه، والنُّكتةُ في مجيئه محذوفَ التّاء، أنّه قابلَ ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، وهو بغير تاء، فتقعُ الموازنةُ والمشاكلةُ بين قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

نُكتةُ تقديمِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾:

بيانُ أنّ الصّلاةَ ركنُ الدّين وأوّلُ ما يُحاسَبُ عليه يومَ الدّين

قُدِّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ذِكْرُ إقامةِ الصّلاة على إيتاء الزّكاة إشعارًا بأهمّيةِ الصّلاةِ وتنويهًا بفضْلِها، فهي عمادُ الدّين، من أقامَها فقد أقامَه، ومن هدّمَها فقد هدّمَه، والصّلاةُ مُتضمّنةٌ للإخلاصِ للمعبودِ، والزّكاةُ والنّفقةُ متضمّنةٌ للإحسان إلى عبيدِه، فعنوانُ سعادةِ العبدِ، إخلاصُه للمعبودِ، وسعيُه في نفعِ الخلْقِ[3]، والصّلاةُ أشرفُ العباداتِ البدنيّةِ، والزّكاةُ أفضلُ العباداتِ الماليّةِ، فقدّمَ ما تعلّقَ بصلاح الفردِ على ما تعلّقَ بصلاحِ المجتمعِ، لأنّ صلاحَ الكلِّ مرهونٌ بصلاح الجزءِ، ومجموعُ الصّلاةِ والزّكاةِ تعظيمُ الخالقِ، والشفقةُ على المخلوقِ[4].

كما أنَّ إقامةَ الصّلاةِ يَستطيعُها الغنيُّ والفقيرُ بخلاف الزّكاة، فكان تقديمُها بيانًا لإمكانِ قُدرةِ الكافّةِ على فعْلِها، وتَساوي الجميعِ في التّعبُّدِ بها، فيكونُ التّقديمُ لها لعمومِها باعتبار المُؤدين لها، وبهذا ينتقلُ النّصُّ منَ الأعمِّ وهو فعْلُ الخيرات إلى الأخصِّ منه وهو إقامُ الصّلاةِ وإلى الأخصِّ منهما وهو إيتاءُ الزّكاةِ، وفي ذلك التّرتّبِ منَ الحُسن والجمالِ ما يَروقُ ويُعجبُ.

دلالةُ الآية على وجودِ الصّلاةِ والزّكاةِ قبل الإسلامِ:

أشار قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 83.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 183.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 40.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 136.

بـيـانُ مـظـاهـرِ تحقيقِ العبوديّةِ لـلـه ﷻ في كـلّ الـشّـرائـعِ السّماويّةِ

وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، إلى وجود الأمرِ بالصّلاة والزّكاة في الشّرائعِ السّابقةِ للإسلام، وهو ممّا تضافرت عليه النّصوصُ، إلّا أنّهما ليسا كالصّلاةِ والزّكاةِ المفروضتَيْن على هذه الأمّةِ المحمديّةِ على نبيِّها أفضلُ الصّلاة وأكملُ التّحيّةِ[1]، فقد أخبر تعالى عن عيسى ﷺ، بأنّه قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: 31]، وقال عن إسماعيلَ ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 55]، وحكى عن إبراهيمَ ﷺ أنّه قال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: 40]، فأخبرنا الله تعالى بمشروعيّةِ هذه العباداتِ للأنبياء ولأتباعِهم، قبْلَ نبيِّنا ﷺ، ولم يُخبرْنا عن كيفيّة فعْلِهم للصّلاةِ، ومقاديرِ الأموالِ الّتي يجبُ إخراجُها، فهذا ممّا تختلفُ فيه الشّرائعُ، وفي هذا الإبلاغِ تخفيفُ التّكليفِ على هذه الأمّةِ وتهوينُ المشقّةِ؛ إذ معرفتُها بفرض الصّلاةِ والزّكاةِ على الأمم السّابقةِ مُهوّنٌ من صعوبة التّكليفِ ومُقلّلٌ من مشقّةِ الابتلاء والاختبارِ.

دلالةُ تصديرِ الجملةِ بفعْلِ الكينونةِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

عبوديّةُ الأنبياءِ ﷺ تـتّـصـفُ بالدّوامِ والثّبوتِ

استهلّ قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، بفعل الكينونة ﴿وَكَانُواْ﴾، وهو يأتي في الأصلِ للاتّصافِ بالخبرِ في الماضي مع الانقطاع، غيرَ أنّه يخرجُ لدلالةِ الدّوامِ والاستمرارِ، فتختصُّ (كان) بمرادفةِ لم يزل كثيرًا، أي: إنّها تأتي دالّةً على الدّوام[2]، وهي الدّلالةُ المقصودةُ في هذه الآية، فالعبوديّةُ وصفٌ دائمٌ ثابتٌ للأنبياءِ ﷺ، وإنّما عبّرَ عنِ الاستمراريةِ بفعل الكونِ الماضي ليتناغمَ وينسجمَ مع الفعل الماضي ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾؛ ليكونَ بمثابةِ الإخبار عنِ امتثالِهم لِما أوحي إليهم في الزّمن الماضي المُناسبِ للإيحاءِ إليهم ماضيًا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

فلم يَتخلَّفوا عنِ التّكليفِ الماضي قيْدَ شعرةٍ، بل تحقّقَ منهمُ العملُ ماضيًا واستمرّوا عليه.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَنَا﴾ في الآية:

تقدّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَنَا﴾ على الخبر ﴿عَٰبِدِينَ﴾ للدّلالةِ على تخصيصِ اللّه ﷻ وحدَه بالعبوديّة، ويُقصدُ بالاختصاصِ هنا قصْرُ المسنَدِ إليه على المسنَدِ، والمعنى: (وكانوا لَنا خاصّةً دون غيرِنا عابدينَ، لا يخطرُ ببالِهم غيرُ عبادتِنا)، كأنّه تعالى أشارَ بذلك إلى أنّهم وفَّوْا بعهدِ العبوديّةِ بعد أن أشارَ إلى أنّه سبحانه، وفَّى لهم بعهدِ الرّبوبيّةِ[1]، كما أفاد تقديمُ الجارّ والمجرورِ على ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أنَّ شرطَ العبادةِ الصّحيحةِ تخصيصُ اللّه تعالى بالعبوديّةِ، وإفرادُه بالطّاعةِ والخضوعِ له وحدَه، وفي التّعبيرِ بالضّميرِ الدّالِّ على الجمعِ في ﴿لَنَا﴾ إشارةٌ إلى سرِّ إفرادِ العبوديّةِ به دونَ غيره؛ لأنّه العظيمُ الّذي لا يَستحقُّ غيرُه التّعظيمَ والعبادةَ، ولينسجمَ مع الضّمائرِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ و﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ الدّالّةِ على عنايتِه العظيمةِ بهم ومن ثمّ أفْرَدوه بالعبادةِ والخضوعِ لعظمتِه.

تخصيصُ الأنبياءِ عليهم السلام اللهَ ﷻ وحدَه بالعبادةِ

سِرُّ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ في الآية:

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، باسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على لزومِهم العبادةَ والدّوامَ عليها، حتّى تصيرَ العبادةُ وصفًا لهم، فهم في عبادةٍ مستمرّةٍ آناءَ اللّيلِ وأطرافَ النّهار[2]، و(العابدون) وإن كان اسْمَ فاعلٍ من حيث الصّيغةُ المشهورةُ، لكنّه بقرينةِ السّياقِ يفيدُ الاتّصافَ الملازمَ والاستمرارَ الدّائمَ، فهو (صفةٌ مشبّهةٌ) مفيدةٌ لدوامِ الوصفِ وثبوتِه، وفي ذلك كمالُ المدحِ لهم بالثّبوتِ على المبدأِ وعدمِ التّذبذبِ في العبادةِ، والعبادةُ غايةُ

اتّصافُ الأنبياءِ عليهم السلام بالعبوديّةِ على الدّوامِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4895.

التّذلّلِ للخالقِ، ومُطلقُ الإقرارِ له بالوَحدانيّةِ منَ الخلائق، والبشرُ لا قيمةَ لهم خارجَ دائرةِ العبادةِ، فهي علّةُ خلْقِ المخلوقين منَ الثّقلَين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: 56]، وعليه فمعنى ﴿عَٰبِدِينَ﴾، أي: "مُديمين على العباداتِ القلبيّةِ والقوليّةِ والبدنيّةِ، في أكثر أوقاتِهم، فاستحقّوا أن تكونَ العبادةُ وصْفَهم، فاتّصَفوا بما أمرَ اللّه به الخلْقَ، وخلَقَهم لأجلِه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأئمّةُ والأنبياءُ:

كـلّ نـبـيٍّ إمـامٌ وليس كلُّ إمامٍ نبيًّا

يتجلّى الفرقُ بين لفظَيْ (أئمّة) و(أنبياء)، في علاقة العموم والخصوصِ المطلَقِ بينهما، فالإمامُ عامٌّ في كلِّ من يُؤتمُّ به، إنسانًا كان فيُقتدَى بقوله أو فعلِه، أو كتابًا، أو غيرَ ذلك مُحقًّا كان أوْ مُبطِلًا[2]، أمّا النّبيُّ فهو إمامٌ خاصٌّ بهداية النّاس إلى الخيرِ والرّشادِ، فيكونُ كلُّ نبيٍّ إمامًا، أي: مُقتدىً به، وليس كلُّ إمامٍ نبيًّا، فجعلَ اللّه في الآية الأنبياءَ ﷺ أئمّةً يَقتدي بهم النّاسُ، في خِصالِ الخيرِ والعبوديّةِ للّه بيانًا لاستحقاقِهم الإمامةَ بالنّبوّةِ وتصريحًا بما عُلِم ضمنًا منها.

الهُدى والرُّشدُ:

الهُـدَى يكونُ في العلْمِ والرُّشدُ يكـونُ عـادةً في العملِ إذا ذُكرا معًا

يتجلّى الفرقُ بين لفظَيْ (يَهْدونَ) و(يَرْشُدونَ)، في اختلاف ضِدَّيْهما، فالرُّشدُ يُقابَلُ بالغَيِّ، والهُدى يُقابَلُ بالضَّلالِ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: 256] وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16] وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: 7]، والرُّشدُ والهُدى:

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 527.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمم).

الاستقامةُ عند انفرادِهما فيدخلُ أحدُهما في الآخر، فإذا اجتمعا فُرِّقَ بينَهما، وإذا ذُكِرَ الهدى وحدَه فإنَّه يشملُ الرُّشدَ لأنّه من لوازمه، وإذا ذُكِرَ الرُّشدُ وحدَه دخلَ فيه الهُدى لأنه من مُسبّباتِه، فالرُّشدُ يتضمَّنُ الهُدى لكونه سببًا له، والهُدى يتضمَّنُ الرُّشدَ لأنّه أثرٌ من آثاره، ولكن إذا ذُكِرا معًا - الهدى والرُّشدُ - فُرِّق بينَهما بأنَّ الهُدى الاستقامةُ في العلم، والرُّشدَ الاستقامةُ في العمل[1]، كما أنّ الهُدى يُستعملُ كثيرًا في سياق أحوالِ العبد الدّينيّةِ مع ربِّه ﷻ، أمّا الرّشدُ فيُستعملُ في ذلك، ويُستعملُ في أحوال الدّنيا، فيُطلقُ على سنّ البلوغ، وعلى حُسنِ التّصرّفِ في المال وضدُّه السّفَهُ، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النّساء: 6]، فأوثِرَ في الآية لفظُ ﴿يَهْدُونَ﴾ وإن اشتملَ على معنَى الرُّشدِ، لتعلّقِه بالأنبياءِ وهدايتِهم النّاسَ الحيارَى إلى طريقِ اللّه المستقيم، بخلافِ الرُّشدِ الَّذي لا يَستلزمُ حالةَ الحَيرةِ في الغيِّ والانهماكِ في الأخطاء، إذ حالةُ الضَّلال تُرافقُها حَيرةٌ نفسيّةٌ وشكوكٌ مصيريّةٌ وحالةُ الغيِّ وممارسةِ الأخطاءِ العمليّةِ تخلو من تلك الهواجسِ والشُّكوكِ.

(1) ابن القيّم، مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية: 6/ 274.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»